حافظ إبراهيم

شاعر النيل الثائر الساخر

- عاش بائسًا ومات مظلومًا.
- أشعل نار الثورة وأحيا الأمجاد فى النفوس.
- فيه تجسدت مصر ببسالتها وصلابتها.
- سخر من كل شىء حتى من نفسه.
- منصف الموتى من الأحياء.

جمع الشاعر حافظ إبراهيم، أكثر من دور فى رجل، وكان ملء القلوب والأسماع والأبصار فى أرجاء عالمنا العربى، كان شخصية فذة متعددة الجوانب، وحمل لواء الشعر الوطنى والاجتماعى، وعاش يلهب حماسة الجماهير، ويدفعهم إلى الثورة على الاستعمار.

كان أستاذاً فى السياسة وأستاذاً فى الاجتماع نصب نفسه وأوقف حياته من أجل رسالته، التى ارتضاها لنفسه، والتى دفعه إليها حبه المثالى لوطنه وبنيه والعروبة كافة.

ولد حافظ إبراهيم على صفحة النيل، فأحبه، حتى أصبح «شاعر النيل»، وأصبح مثلاً حيًا لمصر، وبساطتها، وصدقها، وعنادها، وصبرها على المكارة وهو القائل:

وقف الخلق ينظرون جميعًا
كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبُناة الأهرام فى سالف الدهر
كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق
ودراته فرائد عقدى

كان حافظ يمتلك ناصية الكلمة، ويبدو كأنه يملك الدنيا، ولو خلا جيبه وبيته من الدراهم.

وقد تعود فى حياته ألا يقيم للمال وزنًا، فهو كريم واسع العطاء يعرض له

الفقير فيسمح له بما فى يده، وهو أحوج ما يكون إليه ليسد رمقه، وكان لنشأته الأولى تأثير فى تصرفاته فى الكبر، فمال إلى مخالطة أبناء الشعب البسطاء فسُمِّى شاعر الشعب أيضًا.

ابن الماء

ولد محمد حافظ إبراهيم، كما خط هو بنفسه فى ملفه الوظيفى، يوم الرابع من فبراير (شباط)، من عام ١٨٧١م. فى عوامة نيلية فى مدينة ديروط فى صعيد مصر، حيث كان والده المهندس إبراهيم فهمى، يعمل مهندسا للرى ووالدته هى السيدة هانم، كريمة أحمد البورصلى وهو تركى الأصل، كان يعمل فى وزارة الأوقاف المصرية، ولم يهنأ حافظ طويلاً بحب الأب، الذى رحل عن الدنيا وتركه وهو فى الرابعة من عمره، وعادت به أمه إلى القاهرة ليقيم فى كنف خاله مهندس التنظيم، محمد نيازى البورصلى، وتنقل حافظ بين عدد من مدارس القاهرة، ثم زامل الزعيم مصطفى كامل، فى المدرسة الخيرية فى القلعة، وكانت أمه ابنة خالة أم مصطفى كامل، ولكن يبدو أنها كانت من الفرع الفقير فى العائلة، فغاب عنها الأقرباء.

وانتقل خاله إلى مدينة طنطا، بحكم عمله، فاصطحب حافظ معه وكان الخال ضيق الرزق من ناحية، وكان نفور حافظ نفسه من التعليم المنتظم سببًا فى تركه التعليم، وبعد المرحلة الابتدائية التى أنجزها وهو فى السادسة عشرة من عمره، انصرف إلى تثقيف نفسه بنفسه، فى دواوين الشعر القديم، محاولاً نظمه وتقليده.

عمل حافظ إبراهيم مساعدًا لمحام، وانتقل من محام إلى آخر، ولكنه ترك المحاماة لتعلقه بالشعر أكثر من تعلقه بكتابة عرائض القضايا ومتابعتها. وطلبت المدرسة الحربية دفعة جديدة، فتقدم لها حافظ، فلم يُرفض طلبه لأنه كان أكثر المتقدمين لياقة بدنية، وانتظم فى الكلية حتى تخرج فيها ضابطًا برتبة الملازم عام ١٨٩١م، وعين فى وزارة الحربية، ثم نقل كمعاون شرطة فى وزارة الداخلية،

وعاد بعدها إلى وزارة الحربية، ليذهب إلى السودان ضمن البعثة الحربية، التى ذهبت إلى هناك، وواجه فى السودان غطرسة الإنجليز، ولم يقبل ما يفعلونه، فشارك فى ثورة الضباط المصريين هناك عام ١٨٩٩م، وحُوكم وأُحيل إلى الاستيداع وعاد إلى مصر مغضوبًا عليه، ولم يعد له مورد رزق إلا معاشه، من صندوق التقاعد، الذى لا يزيد على أربعة جنيهات فى الشهر.

وعاش حياة الفقر بعينها، ولم يجد من يساعده إلا الإمام الشيخ محمد عبده، الذى توسط له فسعى إلى إعادته للخدمة العسكرية، حيث عُين مجدداً ضابطًا فى الشرطة، لكنه لم يستطع التأقلم مع أوامر ضباط الاحتلال الإنجليزى، فاستقال بعد أن تنقل بين عدد من المدن المصرية، وكانت مصر أيامها تمور بالمقاومة ضد المحتل الإنجليزى، فانطلقت قصائد حافظ الداعية للمقاومة. على صفحات الصحف، وفى محافل الشعر، ومجلس الإمام محمد عبده، وكانت الفترة من العام ١٩٠٦م، وحتى العام ١٩١٢م من أخصب الفترات التى ولدت فيها قصائده الرائعة، فطار صيته، وذاعت شهرته.

وكان أحمد حشمت باشا، وزير المعارف وقتها، من المعجبين بشعر حافظ إبراهيم، فعينه عام ١٩١١م موظفًا فى دار الكتب المصرية، وحصل عام ١٩١٢م على رتبة «البكوية» لأن وظيفته تؤهله لحمل هذه الرتبة، وليس لأى سبب آخر، كأن يكون مقربًا من ذوى السلطة.

وتدرج حافظ فى مناصب دار الكتب، حتى أصبح مديراً لها، إلى أن أحيل إلى التقاعد فى فبراير (شباط) عام ١٩٣٢م.

حياة غير مستقرة

لم يعرف حافظ معنى الاستقرار الأسرى، فقد تزوج مرة واحدة فى حياته عام ١٩٠٦م، ولم يستمر زواجه أكثر من أربعة أشهر، ثم طلق زوجته، ولم ينجب منها، ولم يتزوج مرة أخرى، طوال حياته، فقد كان يرى فى الزواج والحب نوعًا من الأسر كان يخشاه على نفسه، وإن كانت قدماه قادتاه قبل وفاته بقليل

إلى حى الناصرية فى السيدة زينب، وهو الحى الذى كان يقطنه فى شبابه، فرأى الدار التى كان يقطن فيها وقد تغيرت معالمها، وتبدلت أحوالها، وهاجمته ذكريات الشباب وهو على حافة القبر، فأسند ظهره إلى جدارها واتكأ على عصاه، وارتجل يخاطب تلك الدار بأبيات، وكأنه كان ينعى بها نفسه قبل وفاته.

كم مر بى فيك عيش لست أذكره

ومر بى فيك عيش لست أنساه

ودعت فيك بقايا ما علقت به

من الشباب وما ودعت أخراه

واختلف النقاد فى تقييمهم شعر حافظ إبراهيم، إلا أنهم يجمعون على أن شعره كان تعبيراً حيًا وصادقًا، عن ضمير أمته، كما كان شعره يتصف بالتلقائية الشعبية، وحُسن استخدام الكلمة ببساطة وقوة، معبرا عما يجيش بنفوس شعبه وأمته تجاه قضاياه المختلفة، فقال مخاطبًا أمته العربية، وكأنه يستشرف المستقبل:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما

فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

ويدعو حافظ إلى تربية الفتاة المسلمة، ويوضح أهمية التنشئة الصالحة لها، والدور الكبير المنشود منها فى بناء الأسرة ورعاية الأولاد وإعداد الأجيال الصالحة يقول:

من لى بتربية البنات فإنها

فى الشرق علة الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبًا طيب الأعراق

بين شوقى وحافظ

عاش حافظ وشوقى، وهما عنوان الشعر فى مصر والعالم العربى، خلال الجيل الماضى، وكان الناس لا يذكرون اسم أحد الشاعرين إلا وقرنوا به اسم الآخر، فكانوا يقولون «حافظ وشوقى» أو «شوقى وحافظ» وكان حافظ يضجر من هذا التلازم الدائم فى أفواه الناس، ولكنه كان يجل شوقى ويحترمه، ويقدمه على نفسه، ويشهد له بالسبق، وإن بدت الغيرة الأدبية أحيانًا فى تصرف كل منهما تجاه الآخر، وكان حافظ يقول فى مجالسه: «إن اسم حافظ وشوقى أصبح كنداء الباعة على الطعام، فى الشارع، «سميط وبيض»، أو «سميط وجبنة».

لكنه فزع عندما نُفى أحمد شوقى إلى إسبانيا، خلال الحرب العالمية الأولى، وأرسل شوقى زفرته الحارة فى الشوق إلى الوطن، قائلاً:

يا ساكنى مصر إنّا لانزال على
عهد الوفاء ـ وإن غبنا ـ مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نيلكم
شيئًا نبل به أحشاء صادينا

وأجابه حافظ بقصيدة طويلة يقول فيها:

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا

مبايعة شوقى

ولما أقام أدباء العربية مهرجانًا عامًا عام ١٩٢٧م لمبايعة شوقى بإمارة الشعر تمرد جماعة من الشعراء، ورأوا أن لقب إمارة.

الشعر بدعة، وأن لكل شاعر مكانته ووضعه، وامتيازه فى عالم الشعر، ولكن حافظ رفض هذا التمرد، وحضر المجلس، ووقف بين شعراء العالم العربى ينشد قصيدته فى مبايعة شوقى، بإمارة الشعر قائلاً:

أمير القوافى قد أتيت مبايعًا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولم يتمالك شوقى نفسه فنهض من بين الحاضرين، واحتضن حافظًا وقبله، وكان موقفًا مؤثرًا انحدرت فيه دموع الشاعرين الكبيرين.

وأقيم فى مصر احتفال لتأبين الكاتب الروسى، ليو تولستوى، أُلقيت فيه قصيدة لشوقى، وكانت قصائده تلقى نيابة عنه، لأن صوته لم يكن يصلح لإلقاء الشعر، فلما جاء الدور على حافظ نهض قائلاً مخاطبًا (تولستوى):

قيل عن حافظ

* ماسمع بعلة إلاّ أحسّ أعراضها، ولا وقع على عقار من العقاقير إلاّ اتخذه وتداوى به.
* يمكن لحافظ أن يقبل منك أى نقد توجهه له، إلاّ أن تنتقد شعره، فذلك هو الكسر الذى لا يجبر، والذنب الذى لا يغفر.

مؤلفات حافظ إبراهيم

* ألف حافظ رواية واحدة، هى «ليالى سطيح» وتحكى قصة أديب يائس وشاعر بائس، وكأنه كان يصف نفسه.
* ترجم رواية «البؤساء» لفيكتور هوغو.
* لم يُجمع ديوان حافظ كاملاً إلا بعد وفاته بفترة طويلة، وطبعته دار الكتب عام ١٩٣٧م، بتحقيق الشاعر الراوية أحمد الزين، والدكتور أحمد أمين.

رثاك أمير الشعر فى الشرق وانبرى

لمدحك من كتاب مصر كبير

ولست أبالى حين أرثيك بعده

إذا قيل عنى قد رثاه صغير

لقد كنت عونا للضعيف وإننى

ضعيف وما لى فى الحياة نصير

الساخر أبدًا

كان حافظ إبراهيم معروفًا بخفة الظل والفكاهة واتساع الحفظ للطرائف والنوادر، وكان جريئًا فى إرسال النكتة يُلقى بها ولا يبالى أين تقع، ولا على من تقع، وكان لا يحتمل العيش إلاّ فى جو من المرح، ولذلك كان كبراء القوم يودّون أن يكون حافظ فى مجالسهم الخاصة، التى يقيمونها للسمر والمؤانسة، ولكنه كان يفضل عليها تلك الجلسات التى يعقدها فى المقاهى، والندوات العامة، ولهذا كان لحافظ فى أندية القاهرة ومقاهيها مكان معلوم.

وكان لصديقه الشيخ عبد العزيز البشرى وجه ملىء بالتجاعيد اتخذه حافظ مادة لتعليقاته، وزاره البشرى يومًا فى منزله، ورآه يغسل وجهه فقال له: «هو ده وش (وجه) ينفع فيه غسيل؟ ده عايز غسيل ومكوه».

وكان حافظ إذا تضايق من شىء انفجر كالبركان فيقذف بالنكتة والنادرة بكل قوة وقسوة فى التهكم والسخرية.

سأله مرة صديق من الأدباء عن رأيه فى أحد الشعراء المعاصرين له فقال: «إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب». وكان يسير ليلاً أمام البنك الأهلى فرأى الشرطى الحارس على البنك متكاسلاً يتثاءب، فصاح فيه حافظ: «انتبه وفتّح عينيك» فرد الشرطى: «وانت مالك يا أفندى». فقال حافظ: وأنا مالى إزاى؟ يمكن ربنا يفرجها ونجيب قرشين نحطهم فى البنك».

وجلس حافظ ذات يوم مع أحد الشيوخ، فرآه يخرج من جيبه ساعة كبيرة فسأله مشاهدوها: «إيه دى يا سيدنا؟ «فأجابه الشيخ «دى ساعتى». فقا له حافظ على الفور: «هذه ليست ساعة.. هذه سنة يا مولانا».

الرحيل

توفى حافظ بعد خمسة شهور من تقاعده، ورحل عن دنيانا فى بيته الصغير فى ضاحية الزيتون فى القاهرة، وكان ذلك صباح ٢١ يوليو (تموز)، من العام ١٩٣٢م.

وظل البؤس ملازمًا لحافظ حتى بعد موته، فقد دُفن فى مقبرة مجهولة منفردة فى عرض الطريق، إلى أن اهتم محمد صدقى باشا محافظ القاهرة، فى عهد الملك فؤاد، برفات الشاعر العظيم وأنشأ له مقبرة فى مقابر السيدة نفيسة، لكن أحدًا من الشعراء والأدباء، ممن يرددون شعره، ويعرفون قدره، لا يعرف مكان هذه المقبرة، وهو الذى رثاه عند موته كبار الكتاب والشعراء، وصغارهم، ومنهم صديقه اللدود أحمد شوقى الذى قال فى رثائه:

قد كنت أوثر أن تقول رثائى
يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت، وكل طول سلامة
قــدر، وكــل منيــة بــقضــاء
الحق نادى فاستجبت ولم تزل
بالحق تحفــل عنــد كـل نداء

وكأن شوقى كان يرد فى البيت الأخير، على من لاموه، واتهموه بقلة الوفاء لصديقه الراحل، حيث تأخر فى رثائه إلى يوم الأربعين لوفاته.

ويذكر أن أحمد شوقى نفسه تُوفى بعد حوالى أربعة أشهر من وفاة حافظ إبراهيم، حيث رحل يوم ١٣ أكتوبر (تشرين الأول) من العام ذاته.

يُسمع.. ولا يُقرأ

وكان لحافظ من اسمه أوفر نصيب، كان قوى الحافظة بغير حدود، لا يقرأ كتابًا حتى يستطيع أن يعيد ما قرأه بألفاظه وأرقام صفحاته، مهما يطل به الزمن على قراءته.

ولم يكن يستعين بورقة وقلم فى نظم قصائده، بل كان ينظم القصيدة من مطلعها إلى نهايتها فى ذهنه، ينظمها ويهذبها ويرتب أبياتها، ويقدم فيها ويؤخر، كل ذلك كان يتم فى ذهنه، ثم يقبل على الحفل، ويلقى قصيدته من الذاكرة وكانت حافظته السبب فى عدم اهتمامه بتدوين قصائده، والاحتفاظ بها فى بيته، فقد كان يستطيع أن يعيد على المسامع قصيدة قالها منذ أعوام ويذكر مناسبتها ويوم إلقائها، ومن حضر يومها من الشخصيات البارزة، ومن مميزات حافظ، أنه كان يحسن إلقاء الشعر، فكان يُلقى قصائده بنفسه، ولا ينيب عنه أحدًا فى إلقائها، إلا لعذر قاهر يمنعه من الحضور، وكان جهير الصوت، قوى الأداء، يعلو صوته فى وطنياته، وجموع الشعب تُصغى بإعجاب، وإذا رثى لا يتمالك السامعون أنفسهم من البكاء والنحيب، وفى ذلك قال العقاد: «شعر حافظ لا يقرأ وإنما يُسمع».

وقد عاصر حافظ الكثير من الشعراء، من كبارهم: محمد عبد المطلب، وخليل مطران، ولى الدين يكن، وإسماعيل صبرى، ومحمود سامى البارودى وأمير الشعراء أحمد شوقى.